بمناسبة زيارة سمو الأمير عبد الله لروسيا

قراءة في ملف العلاقات السعودية - الروسية

كتب / إبراهيم عباس

تنطوي الزيارة التاريخية المرتقبة لسمو ولي العهد السعودي لروسيا الاتحادية تلبية لدعوة من الرئيس الروسي فلاديمير بوتين على أهمية خاصة لعدة أسباب يأتي في مقدمتها أنها أول زيارة لمسئول سعودي لموسكو على هذا المستوى الرفيع في تاريخ العلاقات بين البلدين، وكونها تأتي في ظروف عالمية يتغير فيها المناخ الدولي بما يضع العديد من نقاط الالتقاء بين موسكو والرياض عند مستوى الاهتمام المشترك ووجهات النظر المتطابقة خاصة فيما يتعلق بالموقف من الحرب العراقية وتداعياتها والقضية الفلسطينية وتفاعلاتها، وأيضاً لما يعتقد بأنه تراكم جليدي في العلاقات بين موسكو والرياض من جهة وواشنطن من جهة أخرى جاء نتيجة طبيعية لبعض المواقف للادارة الأمريكية الحالية التي يتعذر فهمها والتي تتمثل في انتقادات واشنطن المتكررة لمزاعم الدعم الروسي للبرنامج النووي الإيراني، وتقاعسها عن تقديم الدعم والمعونات التي تقل بكثير عن توقعات موسكو، وإلغائها في ديسمبر ٢٠٠١ لمعاهدة الحد من الصواريخ البالستية (سالت ٢) من جانب واحد، وهي المعاهدة التي سبق توقيعها عام ١٩٧٤، وذلك بعد أن قررت إدارة بوش اثر هجمات الحادي عشر من سبتمبر السير قدماً في إجراء التجارب الخاصة على برنامج الدرع الصاروخي الذي تعارضه روسيا والصين والعديد من الدول الأوروبية لما يشكله من تهديد للاستقرار العالمي . ويضاف الى ذلك شعور موسكو المتزايد بالقلق إزاء استمرار سياسة الناتو في التوسع شرقاً على حساب روسيا، وتنامي الحلف الأمريكي الجديد مع دول أوروبا الحديثة (أوروبا الشرقية) على حساب دول أوروبا العجوزة (القديمة) .

أما فيما يتعلق بالمملكة، فإنه لا يوجد مجال لأدنى شك في أن العلاقات السعودية الأمريكية شهدت منعطفاً هاماً عند الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ألقى بظلاله على الزخم الواضح الذي كانت تتمتع به هذه العلاقات قبل ذلك التاريخ، خاصة في ظل الحملة الإعلامية والسياسة العدائية للمملكة التي حمل لواءها الإعلام والكونجرس الأمريكيان، وكلاهما وكما هو معلوم تحركه أصابع اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الذي لا يخفي عدائه الصريح للمملكة قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعدة عقود والذي وجد في تلك الهجمات فرصة سانحة للتعبير عما يكنه من حقد وكراهية وحسد للمملكة. لكن لا يمكن النظر إلى أهمية تلك الزيارة من خلال هذه الزاوية فقط، ذلك أن السياسة الخارجية للمملكة ظلت تحافظ على ثوابتها منذ عهد القائد المؤسس الملك عبد العزيز رحمه الله والتي يعتبر تبني الأسلوب الهادئ وتطبيق الدبلوماسية الوقائية والسياسة المتوازنة في التعامل مع الآخرين، والحرص على إقامة علاقات طيبة مع كافة دول العالم وإقامة علاقات متوازنة مع الدول الكبرى (دون غلو أو تفريط) في مقدمتها، وبما يعني حرص المملكة على عدم المساس بجوهر العلاقات التاريخية مع واشنطن. وقد تجلى هذا الأسلوب الذي يحكم علاقات المملكة البينية في مجتمعها الدولي في عهد خادم الحرمين الشريفين في مظاهر عدة تعتبر زيارات وجولات القادة والمسئولين السعوديين الناجحة للعديد من دول العالم في قاراته الخمس أحد مظاهرها الهامة، خاصة فيما يتعلق بنقل العلاقات الثنائية مع تلك الدول الى مستوى الشراكة السياسية والاقتصادية.

موسكو والرياض

وأهمية تلك الزيارة لا تقتصر فقط على تلك المعطيات، ذلك أن كلا من المملكة وروسيا تتمتعان بمكانة دولية متميزة تجعل من تلك الزيارة حدثا لا بد وأن يلفت إليه الأنظار الدولية ويجذب إليه انتباه المراقبين الدوليين خاصة على مستوى ما يتوقع أن تنجم عنها من نتائج هامة، فالمكانة التي تتبوأها المملكة على الصعيدين الإقليمي والدولي باعتبارها أولاً أرض الحرمين الشريفين وقبلة المسلمين في جميع أنحاء العالم ومهبط الوحي ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما تتمتع به من موقع استراتيجي متميز، وسياسة متوازنة، واستقرار سياسي كل ذلك جعلها محط أنظار العالم، ومكنها من بناء علاقات طيبة مع مجتمعها الدولي تقوم على ما تؤمن به من مبادئ ثابتة وقيم راسخة تتمثل في التمسك بعقيدتها واحترام ميثاق الأمم المتحدة وغيره من المواثيق الدولية، والالتزام بقرارات الشرعية الدولية، وتعزيز الروابط التاريخية وعلاقات حسن الجوار، والالتزام باحترام وحدة الأراضي والسلامة الإقليمية للدول، والمساواة في السيادة وعدم جواز اكتساب الأراضي بالقوة، وعدم التدخل في الشئون الداخلية للغير، والالتزام بتسوية المنازعات والمشاكل الدولية بالطرق السلمية والأساليب الدبلوماسية والسياسية. كل ذلك أكسب المملكة تلك المكانة المتميزة التي جعلتها أنموذجاً يحتذى في مجتمعها الدولي، وجعل من الرياض إحدى عواصم القرار المؤثر على الصعيدين الإقليمي والدولي. كما أن مركز المملكة الدولي في الصناعة البترولية كأكبر منتج ومصدر للنفط على المستوى العالمي، وامتلاكها لاحتياطي بترولي يعادل ربع الاحتياطات العالمية زاد من أهمية تلك المكانة في بعدها الاقتصادي. أما روسيا، من الجانب الآخر، فتتمتع بدورها بمركز دولي مرموق ليس باعتبارها الدولة التي تحتل المركز الثاني في النادي الدولي النووي وفي مجلس الأمن الدولي وحسب، بل أيضاً لما تتمتع به من ثراء متنوع مساحة وسكاناً وموارد ويتمثل ذلك في مساحتها الشاسعة الممتدة من أوروبا الشرقية وجبال الأورال وسيبيريا وحتى المحيط الهادئ، أي من أقصى شرق الكرة الأرضية ياطلالة على الغرب الأمريكي، إلى حدود فنلندا غرباً، مجاورة بذلك لخمس عشرة دولة آسيوية وأوروبية شرقاً وغرباً وجنوباً، وحيث تضم هذه الأرض الشاسعة سكاناً يصل تعدادهم الى أكثر من ١٥٠ مليون نسمة، وثروات طبيعية هائلة من النفط والغاز والماس والذهب والأخشاب، وفي تعدد قومياتها وأعرافها (سلاف، تتار، أوكرانيين... الخ)، ووفرة مواردها المائية وثرواتها الطبيعية من نفط وغاز وألماس وذهب وأخشاب .كما أنه لا يمكن الاستهانة بالتفوق الصناعي والعلمي والتقني الروسي، خاصة في مجال صناعة الأسلحة وريادة الفضاء والصناعات الثقيلة . ولا يمكن إغفال الأهمية التي تمثلها روسيا بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط نظراً لأنها ظلت تدعم بشكل متواصل القضايا العادلة للأمة العربية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، وظلت تشكل المورد السلاحي الأساس للعديد من الدول العربية، الى جانب دعمها السياسي للقضايا العربية في الأمم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية . وينبغي الأخذ بالاعتبار موقع روسيا الاستراتيجي بالنسبة للدول العربية والإسلامية باعتبارها الجسر الذي يربط بين التخوم الإسلامية في أواسط آسيا والشرق الأوسط من جهة وأوروبا من جانبها الشرقي من جهة أخرى . ويزيد البعد الحضاري الذي يميز تاريخ روسيا القديم والحديث من تلك المكانة، وحيث تعني روسيا للعديدين من عشاق الأدب والفن والموسيقى الكثير - فروسيا تعني لأولئك موسكو وبطرسبرج: البولشوي وكيروف، مارجو فونتين ورودلف نورويف، بحيرة البجع وثروة إيطالية وكسارة البندق والجمال النائم لتشايكوفسكي - مثلما تعني أيضاً جوجول وتولستوي وديستويفسكي ومكسيم جوركي وسولجنستين وبوريس باسترناك وروائعهم : بيت الموتى والحرب والسلام وأنا كارنينا والإخوة كارامازوف والأم ومضيق الجولانج ود. زيفاجو وغيرها، ومثلما تعني أيضاً قباب الكرملين وساحة بطرسبرج وجليد موسكو الذي هزم نابليون، والساحة الحمراء وكاترين الثانية وعائلة رومانوف. وهنالك أهمية استثنائية للزيارة بما يتوقع منها من زيادة في التعاون وتعزيز للصداقة بين المملكة وروسيا. وهذه الزيارة من شأنها أن تجعل من المصدر الأول للنفط في أوبك (المملكة)، والمصدر الأول للنفط خارج أوبك (روسيا) ينتقلان من مستوى التنافس والخلاف إلى مجال التعاون والتنسيق مما سيوفر عاملا قويا في استقرار وثبات سوق النفط العالمي وإحباط المخططات المعادية التي تهدف الى تحويل وجهة هذا السوق نحو اتجاهات غامضة يصعب التكهن بما يمكن أن تؤدي إليه من مخاطر وتحديات.

سمو ولي العهد أثناء استقبالة في مطار موسكو امس « رويترز»

دلالة التوقيت

وتأتي زيارة ولي العهد في توقيت له دلالته على الصعد المحلية والإقليمية والدولية:

* فعلى الصعيد الإقليمي كان الملمح الأساس الذي سبق الزيارة تدشين برنامج العمل والخطة الإصلاحية التي تضمنها خطاب خادم الحرمين الشريفين في افتتاح الدورة الثالثة لمجلس الشورى والتي تمثلت في احد جوانبها في صدور الأمر السامي بتشكيل مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني. وتأتي اثر خطوة جديدة اتخذتها المملكة ضمن تطلعاتها المستقبلية التي تؤكد على الحفاظ على مصالحها وتفعيل علاقاتها الدولية وفق المتغيرات الدولية والمناخ الدولي الراهن وما تقتضيه مصلحتها الوطنية، وهو ما تمثل في إعلان أرامكو السعودية تدشين مشروع مشترك مع العملاقين الأوروبيين شل وتوتال للتنقيب عن الغاز في الربع الخالي جنوبي شرق المملكة، وبما لفت نظر المراقبين في الأوساط النفطية الدولية كونها المرة الأولى منذ عقد السبعينيات التي تقوم بها المملكة للسماح للشركات الأجنبية بالعمل في المجال الاستثماري المباشر في قطاع الطاقة ضمن التوجه السعودي الذي يدعو الى تشجيع الاستثمار. أما على الصعيد الإقليمي فتأتي الزيارة اثر زيادة حدة الصدامات والعنف المتبادل في العراق وفلسطين بما يهدد بإغراق المنطقة في حالة من الفوضى وعدم الاستقرار، خاصة في ضوء استمرار الوجود العسكري في العراق الى أجل غير محدد، وتعثر مسيرة السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين بسبب عدم وفاء إسرائيل باستحقاقات المرحلة الأولى من خريطة الطريق المترتبة عليها والمعبر عنها بإجراءات التهدئة ورفع المعاناة عن كاهل الفلسطينيين، سواء فيما يتعلق بالانسحاب من الأراضي التي أعادت إسرائيل احتلالها بعد اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، أو بالتوقف عن بناء الجدار الأمني، أو الإفراج عن المعتقلين، أو إزالة الحواجز الأمنية وتفكيك المستوطنات ونقاط التفتيش واغتيال الناشطين والقادة السياسيين والعسكريين للفصائل الفلسطينية . وفيما يتعلق بالصعيد الدولي ازدادت موجة الإرهاب التي تجتاح العالم في أماكن عدة - بما في ذلك المملكة - وحيث أصبح من الواضح جداً أن تعرض المملكة للإرهاب، واستهدافها من قبل الإرهابيين يعتبر إثباتا في حد ذاته على أنها ضحية للإرهاب وليست ضالعة فيه كما تدعي أبواق الدعاية الصهيونية في وسائل الإعلام الأمريكية وأوساط الكونجرس والذي كان تقرير لجنة شؤونه الخارجية الصادر مؤخراً حول تورط المملكة في تلك الهجمات عبر ٢٨ صفحة تم حجبها من التقرير، ورفض الإدارة الأمريكية الإفراج عن تلك الصفحات بما يمكن المملكة من تفنيدها والرد عليها بمثابة ضربة أخرى للعلاقات السعودية - الأمريكية من قبل المحافظين الجدد وحلفائهم من اليهود الصهاينة في الولايات المتحدة.

مسيرة طويلة

وقد شهدت العلاقات السعودية - الروسية،كغيرها من العلاقات الدولية، موجات من المد والجزر خلال مسيرتها الطويلة التي تمتد من عام ١٩٢٦ عندما اعترف الاتحاد السوفيتي بالدولة السعودية التي ستتحول عام ١٩٣٢ إلى المملكة العربية السعودية. وقد تبع ذلك قيام الملك فيصل رحمه الله -وكان حينذاك الأمير فيصل- بزيارة للاتحاد السوفيتي في نفس العام، وهي زيارة كان لها أثر بارز في بناء جسر العلاقات بين الرياض وموسكو.

وقد مرت العلاقات بين البلدين بثلاثة أطوار رئيسة:

الطور الأول: ١٩٢٦ - ١٩٣٥، وقد كان منطلق الملك عبد العزيز في إقامة تلك العلاقات - قيام علاقات متوازنة مع الدول العظمى، والتي كان الاتحاد السوفيتي إحداها، واهتمامه رحمه الله بالجاليات والشعوب الإسلامية في جميع أنحاء العالم بما في ذلك الاتحاد السوفيتي الذي كان المسلمون يشكلون نسبة لا يستهان بها من سكانه (حوالي ٥٠ مليون نسمة).

الطور الثاني: من ١٩٣٥ حتى نهاية الثمانينيات الميلادية توقفت العلاقات خلال تلك الفترة إثر رفض موسكو -وفق ما يذكره د.ماجد بن عبد العزيز التركي- تقديم قرض مالي ضخم سعت المملكة للحصول عليه، ولكن الحكومة السوفييتية كانت تنظر إلى التقارب مع المملكة في ذلك الوقت على أنه "مهمة غير واقعية، وليست من أولويات العلاقات السوفييتية".

الطور الثالث : بداية التسعينيات وما بعدها وهو الطور الذي يمثل المرحلة الجديدة للعلاقات بين البلدين التي تخللها عدد من المؤثرات والمعوقات أثرت بشكل رئيس في مسيرتها، والمقصود بذلك اشتعال نار الحرب في شمال القوقاز، والتي رافقتها حملة إعلامية مكثفة ضد المملكة، ومحاولة إقحامها المشكلة الشيشانية وهو ما أدى إلى فتور في تلك العلاقات . ومن الخطأ القول إن تحسن العلاقات السعودية ارتبط بموت الاتحاد السوفيتي وولادة جمهورية روسيا الاتحادية، فالعلاقات السعودية - الروسية شهدت تحسناً منذ أواسط الثمانينيات منذ عهد الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف وتعرضت لانتكاسة في التسعينيات، رغم عودة التمثيل الدبلوماسي بين البلدين بسبب المشكلة الشيشانية. والواقع أن الملك عبد العزيز كان يرى بريطانيا تحيط به من كل جانب، واستطاع بعبقريته السياسية ونظرته الثاقبة وقدرته على استشراف المستقبل أن يقطع دائرة هذا النفوذ عند حدود بلاده بأن أعطى امتياز التنقيب عن البترول إلى شركة أمريكية - وليس بريطانية - حتى لا تسير المملكة في ركب الدول التي تدور في فلك بريطانيا وتخضع لسيطرتها الاستعمارية - بإعطاء الولايات المتحدة هذا الحق، مما كان أثره على صيانة المملكة لاستقلالها والحفاظ على علاقات متوازنة مع كل من واشنطن ولندن.

ونفس هذا السياق للأحداث تكرر في الآونة الأخيرة عندما رأت القيادة السعودية الرشيدة أن الظروف تقتضي تنويع علاقاتها مع الدول الكبرى - بما في ذلك الصين وروسيا - وفق آلية تحد من الطموحات الأمريكية في الهيمنة على المنطقة، وحيث يعتبر اتفاق الغاز الاستثماري مع شركتين أوروبيتين وزيارة ولي العهد الى موسكو أحد مظاهره البارزة في المرحلة الراهنة.

البعد الإسلامي

يشكل المسلمون حوالي ٢٥٪ من التعداد السكاني لروسيا الاتحادية (حوالي ٢٥ مليون نسمة)، وتشتهر روسيا بأقاليمها الإسلامية في القوقاز وأبرزها داغستان . وعلاقة روسيا بالإسلام تقارب ألف سنة، أي قبل اكتشاف أمريكا ذاتها.

ويوجد في موسكو وحدها قرابة مليون مسلم والعديد من المساجد أبرزها جامع كافيدر الي الذي تقام فيه صلاة العيد.

ويتضح التأثير الإسلامي على الثقافة الروسية من خلال أعمال بعض الأدباء والشعراء والموسيقيين الروس أمثال تولستوي وليرمنتوف، والشاعر الشهير بوشكين الذي كتب قصائده (تشبيهات قرآنية) و(ليلة القدر)، وغيرها من المواضيع الإسلامية.

كذلك اشتهر رحمانينوف وكورسيكوف بموسيقاهم الكلاسيكية التي يغلب عليها الطابع الشرقي العربي، ويتضح ذلك بشكل خاص في مقطوعة كورسيكوف الشهيرة (ألف ليلة وليلة).

كما يوجد العديد من المدارس والأكاديميات السعودية في روسيا. ويعتبر معهد الحضارة الإسلامية أحد المعالم الثقافية البارزة في العاصمة الروسية.

وقد دأب خادم الحرمين الشريفين حفظه الله على استضافة أعداد من مسلمي العالم ومنهم مسلمو روسيا، على نفقته الخاصة لأداء مناسك الحج والعمرة.

ولعب البعد الإسلامي دوراً كبيرا في التأثير على العلاقات بين البلدين إيجابا في بعض الأحيان وسلباً في أحيان أخرى . وتمثل الدور الإيجابي في هذا البعد قبل إعلان وفاة الاتحاد السوفيتي عندما سمحت موسكو بزيارة وفد من رابطة العالم الإسلامي الذي قام بجولة في أرجاء الاتحاد السوفيتي مما أتاح فرصة التعرف على أوضاع المسلمين في الأقاليم الإسلامية والتعرف على مشاكلهم، والى إيجاد فرص لعدد لا بأس به من الطلاب المسلمين في الاتحاد السوفيتي للدراسة في الجامعات والمعاهد السعودية، وحيث تم توزيع مليون نسخة من القران الكريم خلال تلك الجولة.

أبعاد أخرى

تعد المملكة وروسيا من الدول النفطية الرئيسة، لاعتمادهما بصورة أساسية على مصادر الطاقة وعوائدها، ولاهتمامهما المشترك بثبات واستقرار سوق الطاقة. كما أن كلاً من البلدين يشكل أرضية جديدة ورحبة للاستثمار وبما يتيح العديد من الفرص الاستثمارية التي تهم الجانبين .

ورغم أن حجم التبادلات التجارية بين البلدين يعتبر منخفضاً نسبياً حتى الآن، إلاّ أن هنالك العديد من المؤشرات التي تدفع في اتجاه توقع زيادة حجم تلك التبادلات الى مستويات عالية على ضوء الزيارة المرتقبة لسمو ولي العهد والتي ستحتل المباحثات والاتفاقيات الاقتصادية والتجارية جانباً كبيراً منها.

والجدير ذكره أن متوسط التبادل التجاري بين السعودية وروسيا خلال السنوات العشر الماضية لم يتجاوز مستوى ٤٨٧,٥ مليون ريال (حوالي ١٣٠ مليون دولار) سنوياً. وقد بلغ هذا الحجم أقصاه عام ١٩٩٥ (٨٣٥ مليون ريال).

وقد دخلت العلاقات الاقتصادية بين البلدين مرحلة جديدة ومشجعة بعد الضعف الذي اعتراها خلال العقود الماضية، وتمثل ذلك في عدة مظاهر منها الزيارة التي قام بها الأمير الوليد بن طلال لموسكو في العام الماضي لبحث فرص الاستثمار في العاصمة الروسية وفي مدينة سان بطرسبرج، وتمثل أيضاً في زيارة وفد تجاري سعودي عالمي المستوى يضم ٥٠ رجل أعمال الشهر الماضي برئاسة الأستاذ عبد الرحمن الجريسي رئيس مجلس الغرف التجارية الصناعية السعودية إلى موسكو بهدف تطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين البلدين.

وقد جرى مؤخراً الإعداد لحوالي ١٣ مشروع اتفاق تعاون في المجالات الاقتصادية والعلمية والشبابية وفي مجال التعاون الأمني ومكافحة الإرهاب للتوقيع عليها أثناء الزيارة.

وتأتي هذه الزيارة في ظل تنام ملحوظ ومتزايد للعلاقات السعودية الروسية التي يتوقع أن تقفز إلى مجالات أوسع وافاق أرحب كنتيجة لهذه الزيارة التاريخية الهامة والتي سبقها العديد من زيارات المسؤولين السعوديين وأهمها الزيارتان اللتان قام بهما سمو وزير الخارجية الأمير سعود الفيصل لموسكو منذ بداية هذا العام.

ولاشك أن هنالك تطلعات مشتركة لكل من الرياض وموسكو تدور حول الآمال المعقودة على هذه الزيارة خاصة فيما يتعلق بتفعيل الدول الروسي في خريطة الطريق وإعادة الاعتبار للأمم المتحدة من خلال إعطائها دورا أكبر على صعيد فض المنازعات الدولية سلماً وبما يسهم في عودة أجواء الأمن والاستقرار للعالم ككل ولمنطقة الشرق الأوسط بشكل خاص، والعمل على تأسيس مصلحة استراتيجية مشتركة تواجه المصالح الأنجلو -أمريكية في المنطقة وتتوازن معها. والزيارة بهذا المعنى تعبر بشكل كبير عن توجهات السياسة الخارجية السعودية في المرحلة الراهنة، وتمثل انعكاسا صادقا لمبادئ وأسس تلك السياسة فيما يتعلق بحرص المملكة ورغبتها في تنمية علاقات الصداقة والتعاون والتفاهم المشترك وبما يخدم قضايا الحق والعدل للإنسانية جمعاء، وبما يسهم في إشاعة أجواء الأمن والاستقرار في العالم بشكل عام وفي منطقة الشرق الأوسط بشكل خاص . وتتمشى الزيارة وفقاً لما سبق ذكره مع سياسة المملكة وتطلعاتها نحو تحقيق مصالحها ودعم قضايا أمنها وتحقيق السلام والأمن الدوليين من خلال تعميق علاقاتها مع موسكو على كافة الأصعدة وفي شتى المجالات وبما يمكن أن يؤدي الى إيجاد أرضية مناسبة تلتقي فيها المصالح ووجهات النظر ضمن أجواء التعاون المشترك والاحترام المتبادل.